ضرب سوريا ..أولى 'ثمار' الحرب على العراق!

14-10-2003

إن المستنقع السياسي والعسكري الذي غرق فيه جورج بوش قد دفعه ومستشاريه وبالتحديد رامسفيلد، إلى البحث عن استراتيجية للخروج منه، وقبل أن يحدث هذا، استغلت اسرائيل الفرصة لتعزيز مكاسبها، فالهجوم على سوريا يأتي في وقت أثار وزير الخارجية الأمريكي كولن باول فيه المزيد من الإعتراضات المسموعة على "جدار الفصل" البغيض، الذي يجري تمويله بدولارات دافع الضرائب الأمريكي

صحيح أن الإعتداء الإسرائيلي الأخير ضد سوريا كان أحد أعنف العمليات منذ بدء الإنتفاضة، ولكنه لم يختلف من حيث المبدأ عن عشرات الجرائم المماثلة الأخرى التي أصبحت الآن سمة للحياة اليومية في اسرائيل، غير أن الأمر المختلف هذه المرة هو أن التوجه الإستراتيجي لإسرائيل قد تغير بصورة جوهرية.

ففي حين كانت اسرائيل قبل 30 عاما تنتهج النهج الدفاعي معتمدة إلى حد كبير على الولايات المتحدة، فإنها اليوم تبدو مستعدة بشكل واضح للتصرف من تلقاء نفسها، دون انتظار الحصول على موافقة علنية من واشنطن. وتلك هي النتيجة الرئيسية للحرب على العراق، أي إطلاق العنان لإسرائيل، وضرب سوريا هو أحد ثمار "الإنتصار" الذي انتُزع بثمن باهظ جدا.

إن الحرب على العراق، كما تنكشف يوما بعد يوم لا علاقة لها بـ "أسلحة الدمار الشامل"، ولا علاقة لها لا بالقاعدة ولا بـ "غرس الديمقراطية" في تربة العراق المعقدة، وتكشف المرحلة الأولى من حرب أكتوبر الثانية، عمليا، العقيدة الإستراتيجية الكامنة في قلب سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية وهي تنصيب اسرائيل دولة إقليمية مسيطرة.

وكانت هذه العقيدة قد ورد ذكرها في ورقة عمل أُعدت في عام 1996 لصالح رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بنيامين نتانياهو من قبل مجموعة عمل تتألف من عدة شخصيات يحتلون الآن مراكز رفيعة في إدارة بوش، وأوصت الورقة التي تحمل عنوان "انفصال تام: استراتيجية جديدة لتأمين العالم"، بأن تحرر اسرائيل نفسها من الإعتماد المحرج والمضعف على الجيش والدعم الدبلوماسي الأمريكيين، وبصرف النظر عن كونه غير مشروط، فان هذا الدعم قيد اسرائيل ومنعها من السعي وراء مصالحها الحقيقية، وهذه الورقة التي شارك في صياغتها كل من ريتشارد بيرل، جيمس كولبرت، تشارلز فيربانكس الابن، دوغلاس فايث، روبرت لوينبرغ، ديفيد وورمسر وميراف وورمسر، صورت سوريا باعتبارها العدو الرئيس لإسرائيل، ولكنها أكدت أن الطريق إلى دمشق يجب أن يمر أولا عبر بغداد: "تستطيع اسرائيل أن تشكل بيئتها الإستراتيجية بالتعاون مع تركيا والأردن، ومن خلال إضعاف واحتواء بل صد سوريا، ويمكن لهذا الجهد أن يركز على إزالة صدام حسين من الحكم في العراق، وهو هدف استراتيجي اسرائيلي مهم بحد ذاته، كوسيلة لإحباط الطموحات الإقليمية السورية، وقد تحدى الأردن، مؤخرا، طموحات سوريا الإقليمية عبر اقتراح اعادة الملكية الهاشمية إلى العراق".

اليوم، يشغل ثلاثة من مستشاري نتانياهو السابقين وهم: بيرل وفايث وديفيد وورمسر، مناصب رفيعة في مجالس السياسة الخارجية التابعة لإدارة بوش، حيث ساعد دعمهم البغيض للحرب على العراق في تنفيذ القسم الاول من هذه الخطة، ويشغل ديفيد وورمسر منصب كبير معاوني مساعد وزير الخارجية جون بولتون، الذي كان يعد شارون، قبل أن تُطلق طلقة واحدة على العراق، بأن سوريا ستكون التالية. وكما نشرت صحيفة "هآرتس" العبرية في حينه، فإن مساعد وزير الخارجية الأمريكي جون بولتون قال في اجتماعاته مع مسئولين اسرائيليين في الفترة التي سبقت الغزو، إنه لا يساوره أدنى شك بأن أمريكا ستهاجم العراق.

وقد طالب رئيس الوزراء الاسرائيلي باتخاذ إجراءات ضد سوريا، ففي اجتماع له مع وفد من الكونغرس الأمريكي سلم شارون الأمريكيين "أوامره" العسكرية، حيث جاء في صحيفة "هآرتس": قال رئيس الوزراء اريل شارون أمس أن إيران وليبيا وسوريا يجب أن تجرد من أسلحة الدمار الشامل بعد العراق، وقال شارون لوفد زائر من أعضاء الكونغرس الأمريكي : هذه دول غير مسئولة يتعين تجريدها من أسلحة الدمار الشامل، وإن تحركا أمريكيا ناجحا في العراق، سيجعل تحقيق ذلك أسهل.

لكن الأمريكيين ارتدعوا عن شن حروب أخرى بفعل التورط غير المتوقع (بالنسبة لمهندسي الحرب) في المستنقع العراقي الذي يزداد عمقا، فلقد وضعت مقولة كارل روف (دماغ بوش): "لا حروب في عام 2004"، حاجزا في طريق المحافظين الجدد في الحكومة الأمريكية المؤيدين لإسرائيل، والذين يخضعون الآن لحصار، لتلعب إسرائيل، الذي أثار حفيظتها هذا التحول في الأحداث بورقتها العسكرية.

إن الهجوم الاسرائيلي على سوريا هو نسخة مطابقة للهجوم الأمريكي على العراق، الإدعاء بوجود "صلات" بالإرهابيين، يليه عمل عسكري من طرف واحد، غير أنه هذه المرة في تحد سافر للعالم أجمع، بما في ذلك الولايات المتحدة، وليس فقط الأمم المتحدة. اللاعبون مختلفون، ولكن المبدأ واحد، وهو تشابه سيوظفه أنصار اسرائيل الأمريكيين من أجل تبرير استفزاز شارون الطائش لدمشق، حيث يقال على الدوام أن اسرائيل من حقها أن "تدافع" عن نفسها، حتى لو كان ذلك يعني غزو واحتلال كل فلسطين وطرد سكانها الأصليين إلى الأردن. وكما رسمت ورقة "انفصال تام" الخطة، فإنه : "نظرا لأن مستقبل العراق يمكن أن يؤثر في التوازن الإستراتيجي في الشرق الأوسط بشكل عميق، فسيكون أمرا مفهوما أن اسرائيل لها مصلحة في دعم الهاشميين في جهودهم

لإعادة رسم العراق". ويقول المتشددون في الليكود وأنصارهم الأمريكيين: دعونا نسلم المشكلة الفلسطينية للهاشميين، فلا وجود لشعب فلسطيني ...إنهم في الحقيقة أردنيون ليس إلا، وإن إعادة تنصيب الهاشميين في العراق ستمهد الطريق لإنشاء "اسرائيل الكبرى"، وستقوم اسرائيل، بقدرتها العسكرية المبالغ فيها، بالسيطرة على المنطقة، وهذا هو هدف بعض رجال الدين النصارى من أمثال بات روبرتسون وجيري فاويل، اللذين يعتقدان أن السيطرة الإسرائيلية في الشرق الأوسط تمثل تحقيقا لنبوءة انجيلية، ولكن النبوءة، بنظرهم، يمكن أن تكون ذاتية التحقق، ويعتقدون أن من واجبهم كنصارى تعجيل تحقيقها. وقد قاد التقرير الحديث حول التفوق العسكري المتنامي لإسرائيل والصادر عن مركز جافي بجامعة تل ابيب، إلى مخاوف واسعة النطاق من "غرور" اسرائيل، ونشرت الوكالة التلغرافية اليهودية تقريرا جاء فيه: يقر الباحثون في مركز جافي بأن بعضا من المكاسب الإستراتيجية الجديدة لإسرائيل يعتمد على نجاح الولايات المتحدة في ارساء النظام في العراق أو عجزها عن القيام بذلك، ويقولون إنه إذا حدث الأمر الثاني، فإن بعضا من مكاسب اسرائيل يمكن أن تتبخر.

إن المستنقع السياسي والعسكري الذي غرق فيه جورج بوش قد دفعه ومستشاريه وبالتحديد رامسفيلد، إلى البحث عن استراتيجية للخروج منه، وقبل أن يحدث هذا، استغلت اسرائيل الفرصة لتعزيز مكاسبها، فالهجوم على سوريا يأتي في وقت أثار وزير الخارجية الأمريكي كولن باول فيه المزيد من الإعتراضات المسموعة على "جدار الفصل" البغيض، الذي يجري تمويله بدولارات دافع الضرائب الأمريكي.

إن الرئيس الأمريكي الذي يعتمد على قاعدة النشطاء الجمهوريين التي تضم الملايين من المسيحيين المحافظين، الذين يضعون مصالح اسرائيل أولا، لا يستطيع لجم شارون. وبموت "خريطة الطريق" وانقلاب المحافظين الجدد عليه (أو بالأحرى تهديدهم بذلك)، وارتفاع في الخسائر البشرية وفضيحة سياسية تغلي على نار هادئة وتهدد بتقويض أركان رئاسة بوش فإنه يتعين على جورج بوش أن يرضى بالمراقبة من دون أن يحرك ساكنا بينما يقوم شارون، المستفيد الرئيسي من الحرب على العراق، بالتحرك لجني ثمار الإنتصار العسكري الأمريكي، في حين يظل البيت الأبيض عالقا بفاتورة يتعين دفعها بقيمة 87 مليار دولار.